

## معرفة الله في كتابات القديس غريغوريوس النيصي\*

إيريني أرتاميو وخريستوس تارايزيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يُعتبر غريغوريوس النيصي من رواد اللاهوت التنزيهي [١] والتقليد الصوفي في المسيحية. إن التناقض الأسمى للإله المثلث الأقانيم، المجهول والمعروف، غير القابل للنقل والمنقول، المتعالي والداخلي، هو الموضوع الأساسي لمذهبه الأبوفاتيكي. علاوة على ذلك، فإن اللاهوت السلبي لغريغوريوس النيصي يوازنه إحساسه الحاد بإعلان الله إلى أبعد من ذلك، والذي يُبنى بنفس القدر عن الآب والابن والروح القدس [١٦]. الآب والابن والروح ليست أسماء إلهية في حد ذاتها، لكنها ألقاب موحاة تشير إلى العلاقات بين الأقانيم الثلاثة. يؤكد غريغوريوس النيصي على أن المعرفة الحقيقية بالله لا توجد في العالم المخلوق، لكنه حرص على عدم جعل المعرفة المعرفية، حتى لو كانت محدودة بالضرورة، تبدو غير مهمة [١٧].

يتحدث غريغوريوس عن الله غير المدرك وغير الموصوف بطرق عديدة ومختلفة في كتاباته. إنه يبرهن وجود الله في العالم من خلال الأمثلة والحجج والصور، ويشرح كيف أن على أرواحنا أن تتطهر لتستأهل إدراك الحقيقة الإلهية. في "حياة موسى" وفي "ضد أفنوميوس"، يشرح الآب القديس أن البشر لا يستطيعون فهم ما هو "غير مرئي"، "خالد"، "لا يوصف" من الله، فيصنعون صورًا له تكشفه [١٨]. بتضاد مع تعليم أفنوميوس بأن طبيعة الله كانت مفهومة بالتمام، يشرح غريغوريوس ويؤكد أيضًا على غموض الله ولانهائيته، وبالتالي يمنح الإنسان حياة تحوّل مستمر في الفضيلة إلى إدراكٍ أبدي لله: "كمال الطبيعة البشرية يتكون ... في نموه ذاته في الخير" [١٩].

يؤكد غريغوريوس أن الله غير مدرك - أو على الأقل أن جوهر "ousia" الله لا يمكن إدراكه. يجد غريغوريوس التبرير اللاهوتي لهذا في مفهوم اللاتناهي الإلهي. إن الله أبدي وفوق الزمان. ينتج عن هذا الخلود أن الله يمتد إلى مدى لامتناه [٢٠]. "ولكن إذا كانت الطبيعة الإلهية غير القابلة للتغيير غير مؤهلة للتحلل، كما يعترف حتى أعداؤنا، فيجب أن نعتبرها غير محدودة بالمطلق في صلاحها: واللامحدود هو نفسه اللامتناهي" [٢١].

من الممكن من خلال نعمته المقدسة أن نعرف مجده وقداسته وعظمته. إن معرفة الله تفوق قدرة الإنسان. لقد وعد الله بأن أنقياء القلوب هم الذين يعاينون الله [٢٢]. هذا أحد الشروط الأساسية لتحوّل الإنسان التدريجي إلى الكائن الإلهي واستحقاقه لإسقاطاته الوصفية. الله بطبيعته فوق قدرتنا

على الرؤية، لكنه منظور في أعماله، قابل للإدراك في المصطلحات (idiomata) التي تحيط به. لذلك، من الأفضل أن يتكلم الإنسان عن أعمال الله، وعند التحدث عن جوهره يجب أن يظل الإنسان صامتًا. الله ليس "موضوع" معرفة، بل موضوع إجلال. وبحسب كلمات الشاعر: "ما أعجب اسمك في الأرض كلها!" [٢٣]. يهدف غريغوريوس إلى إظهار أن كيانات جميع أعضاء الله غير محدودة في الخير والقوة والحياة بدون تمييز. ليس في جوهر الله (ousia) "مستويات". إن الله بطبيعته فريد وبسيط لا نظير له. لا يمكن أن يتحلل بمرور الزمن ولا يمكن أن يتغير أو يفقد كماله، كما يجادل أفنوميوس. في ضوء هذا، كيف يمكن لشخص أن يقارن الصلاح اللامتناهي في الابن بصلاح آخر غير محدود في الآب ويقول أن أحدهما أصغر والآخر أعظم؟ هل يمكن لصلاح لامتناهٍ أن يكون أقل من صلاح لامتناهٍ آخر؟ بالطبع لا. بهذه الطريقة يتحدى غريغوريوس تعليم أفنوميوس بأن: الآب والابن كلاهما كاملان في الصلاح ومع ذلك فإن الآب متفوق على الابن [٢٤].

لا يمكن للإنسان مقارنة جوهر الله. يستطيع الأخير أن يشعر بالنعمة والمجد الإلهيين: "لا نجهل طبيعة الله التي ننبئها في حكمته وقدرته والتي تفهمها عقولنا" [٢٥].

بما أن النفس البشرية لا تستطيع أن تستوعب طبيعة الله اللامتناهيية بشكل كامل، لا يسعى الله إلى الكشف عن ذاته بالكامل للذين يسعون إليه. بدلاً من ذلك، لا يكشف إلا ما يكفي لتوسيع رغبة الروح في المزيد حتى تُضغَط؟ النفس أكثر فأكثر على طريقها اللامتناهي إلى الأعلى. وبكلمات غريغوريوس نفسه: "أيمكننا من ثم أن نتصور أي كبح في طبيعة لانهائية؟ وما لا حدود له لا يمكن فهمه بطبيعته. وهكذا تتعزز كل رغبة في الجمال تجتذبنا في هذا الارتقاء من خلال تقدم النفس نحو هذه الرغبة. هذا هو المعنى الحقيقي لمعاينة الله: ألا تبلغ هذه الرغبة أبداً الشبع" [٢٦].

إن رغبة الإنسان في معرفة الله ومعاينته تُشبع باستمرار ومع ذلك فإنها لا تكتفي أبداً. "سعى موسى لرؤية الله، وهذه هي التعليمات التي تلقاها حول كيفية رؤيته: رؤية الله تعني اتباعه حيثما يتقدم" [٢٧].

أحياناً، معرفة الله وجهله لهما نفس معنى معاينته في كتابات غريغوريوس النيصي. الظلمة الإلهية تقود إلى الاستنارة. إنها تُظهر اللقاء مع الله، لا كفعلٍ فهم، بل كاتحادٍ يفوق الفهم [٢٨]. يتحدث القديس عن رؤية الله المُعَبَّر عنها بلغة الظلام بدلاً من صور الضوء السائدة [٢٩]. هذه العلاقة بين الظلام والنور، معرفة الله وجهله، بدأت عند الأب القديس موسى مع معاينته النور. بعد ذلك كلمه الله في سحابة. ولكن عندما ارتقى موسى إلى أعلى وأصبح أكثر كمالاً، رأى الله في الظلمة. يشرح غريغوريوس عن جهل الله أن "الإلهي هو هناك حيث لا يصل الفهم" [٣٠].

ربما يكون الافتراض بأن "المعرفة إدراكية" هو أول ما على المرء أن يتخلص منه، إذا أراد أن يدرك بشكل صحيح مفهوم القديس غريغوريوس النيصي للظلمة الإلهية [٣١]. لكنه افتراض أساسي جدًا للفكر العلمي الحديث، لدرجة أن تأثيره بالكاد يقدم أي حيثية، فهو مأخوذ بالكامل كحقيقة أساسية في مضمار التعلّم الشامل. إن ما يتطرّق إليه هو هذه الفكرة بالذات: الطريقة الكاملة للمعرفة التي بها نقارب معرفة الله. إنها معرفة تتجاوز حدود الإدراك وقيوده وعدم قدرته المتأصلة على فهم المتعالى [٣٢]. إنها معرفة تنغمس في السلبية، في ظلام ذلك المكان "حيث لا يصل الفهم"، وهناك تجد ذروة المعرفة الحقيقية.

إن أفضل تعبير عن مفهوم المعرفة الصوفية عند غريغوريوس هو تصويره للظلام الإلهي: رمز قد يكون أحد أعظم ما وهبه لعالم الفكر المسيحي [٣٣]. إنه يقدمه بشكل أوضح في نصّه الشهير "حياة موسى"، وبشكل أساسي، من هذا النص ينبغي إجراء هذا الفحص الموجز [٣٤].

بحسب غريغوريوس النيصي، المعرفة عن الله مبنية على العقل البشري ولا يمكن أن تكون الدليل الصحيح لـ "معاينة" الله، إنما الجهل بالطبيعة الإلهية يقوم على النفس البشرية. يبحث الإنسان عن الله، ومن خلال جهله، أي ظلمة عقله بالنسبة إلى الله، يمكنه اكتشاف الحقيقة الإلهية [٣٥]. إن معرفة الذات عند البشر في ما يتعلق بمدى القدرات المعرفية هي شرط مسبق حاسم لفهم عدم تناهي الإله. عندها فقط يمكن للإنسان المحدود أن يرى الله اللامتناهي.

إن سكنى الثالوث تكون داخل الإنسان. وبالطبع فإن المقصود بمصطلح "الثالوث" هو الصفات الإلهية لله وليس كيانه. كما أن الألوهية تسكن في النفس، كذلك النفس قادرة على أن تنقل للإنسان معرفتها، بطريقة إدراك لم تُعد محسوسة. إن النفس تعمل كمرآة تبت في معرفة المرء إعلان الله ذاته. لا تتأثر معاينة الله بالبصر والسمع، ولا هي تُفهم بأي من تصورات العقل التقليدية: "ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولا هي من بين هذه الأشياء التي تدخل عادة قلب الإنسان" [٣٦].

هذه هي بداية معرفة الله بالقلب - بالحضور الصميمي لله نفسه. لكنه يكون خافتاً فقط، وغير واضح، كما يتوقع المرء أن يرى داخل سحابة. يجب أن تبقى النفس متطهرة، وأن تعتاد أكثر على طريقة المعرفة الجديدة هذه. يجب، في الواقع، أن تتخلّى عن اعتمادها على الإدراك، وتحتضن الضعف الظاهري "للمعرفة التي تفوق الوصف". يجب على الإنسان "أن يغسل من فهمه كل رأي مُستمد من بعض الأفكار المُسبقة وأن ينسحب من تواصله المعتاد مع رفيقه، أي تصورات الحسية التي، على ما هي عليه، مشدودة إلى طبيعتنا كرفيق لها. عندما يتطهر على هذا المنوال ينقض على الجبل" [٣٧].

بشكل عام، يمكن أن يكون عدم معرفة الله معادلاً للظلام. الله هو النور. إن انفصال الإنسان عن الله جلب الظلمة إلى عقل الإنسان وقلبه. يؤكد فلاديمير لوسكي بطريقة شعرية أنه إذا عُرف الله كنور، فإن

فقدان هذه المعرفة هو الظلام؛ وبما أن الحياة الأبدية تتكون من "معرفة الآب وابنه يسوع المسيح"، فإن غياب معرفة الله ينتهي بظلام الجحيم. إن النور هو نتيجة تترافق مع الاتحاد بالله، في حين أن الحقيقة المظلمة لا يمكن أن تتغلب على الوعي البشري إلا عندما يسكن الوعي البشري على حدود الموت الأبدي والانفصال النهائي عن الله [٣٨]. وهكذا يبدو أن الإحساس الواضح بالظلام هو، قبل كل شيء، ازدرائيًا [٣٩]. إذا قيل إنساناً ما جهله لله الأزلي، يمكنه أن يكتشف معرفة الله الحقيقية. النفس البشرية تلتقط معاينة الله فقط بتطهرها. يحل غريغوريوس أن الإنسان المتطهر في قلبه هو وحده القادر على معاينة الله [٤٠].

يعلّم غريغوريوس أنه فقط إذا الظلام: "وعدم معرفة الله على جبل سيناء تحوّل إلى نور المعرفة الحقيقية على جبل ثابور يصير الإنسان قادرًا على الحصول على معاينة الله، الوجه المجيد لله المتجسد والنور الأبدي غير المخلوق للإله الثالوثي" [٤١].

ويقول أيضًا أن النفس التي تحب الله حقًا تشتتني الاتحاد به، ويحاول الإنسان أن يجد هذا الاتحاد من خلال معاينة الله ومعرفته. إنه يشدد على أن معرفتنا الحقيقية بالله هي أننا لا نعرف ولا يمكننا أن نعرف، لأن ما نسعى إليه يتجاوز إدراكنا. إن اللاهوت، بطبيعته الخاصة، أعلى من المعرفة والفهم [٤٢].

\* هذا المقال جزء من:

Eirini Artemi & Christos Terezis (2019). The mystical theology as a path of man for the divine Knowledge in the writings of Gregory of Nyssa, Dionysius Areopagite, and Maximus the Confessor. *De Medio Aevo*. 13, 2019. 153-176.

Eirini Artemi, "Man's "knowledge" and "ignorance" for God in the teaching of Gregory of Nyssa and Nicholas of Cusa", *Mirabilia* 19 (2014/2), (42-61), 43- 48.

[١] اللاهوت التنزيهي (apophatic)، ويسمى أيضاً السلبي، هو شكل من أشكال التفكير اللاهوتي والممارسة الدينية التي تقارب الله عن طريق النفي، أي وصفه من خلال تحديد الخصائص التي لا يمتلكها.

[16] M. Plested, *The Macarian Legacy: the place of Macarius-Symeon in the eastern Christian*, Oxford: Oxford University Press, 2004, p. 57.

[17] J. Winters, "Saying Nothing about No-Thing: Apophatic Theology in the Classical World", [Bahai Library Online 1994], <http://bahailibrary.com/personal/jw/my.papers/apophatic.html>. Cf. A. Strezova, "Knowledge and Vision of God in Cappadocian Fathers", Article published on: 10-9-2010, [http://oodegr.co/english/filosofia/gnws\\_i\\_8ewria\\_kappadokes.htm](http://oodegr.co/english/filosofia/gnws_i_8ewria_kappadokes.htm)

[18] Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium*, II, Werner Jaeger, ed., *Gregorii Nysseni opera*, (Leiden: Brill, 1960), 2.1, 1021-10, trans. in English by Stuart George Hall. The translation exist in Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium II*, an english version with supporting studies, Lenka Karfiková, Scot Douglass, Johannes Zachhuber eds, Leiden- Boston 2007: "When God was yet unknown to the human race because of the idolatrous error which then prevailed, those saints made him manifest and known to men, both by the miracles which are revealed in the works done by him, and from the titles by which the various aspects of divine power are perceived. Thus they are guides towards the understanding of the divine nature by making known to mankind merely the grandeur of their thoughts about God; the account of his being they left undiscussed and unexamined, as impossible to approach and unrewarding to those who investigate it"

[19] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, I, 10, *Sources Chretiennes* 1, ch. 2, 311-6 (=PG 44, 301C), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978. Cf. D. Ang, *The model of paradox in Christian theology: perspectives from the work of Henri de Lubac*, Sudney, 2011, p. 8.

- [20] B. E. Daley, SJ., "Bright Darkness' and Christian Transformation: Gregory of Nyssa on the Dynamics of Mystical Union", in *Finding God in All Things: Essays in Honor of Michael J. Buckley, S. J.*, ed. Michael Himes and Stephen Pope, (Crossroad - New York, 1996), p. 219. Cf. D. Carabine, "Gregory of Nyssa on the Incomprehensibility of God", in *The Relationship between Neoplatonism and Christianity*, ed. Thomas Finan and Vincent Twomey, Four Courts Press, (Dublin, 1992), p. 87.
- [21] Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium*, I, Werner Jaeger, ed., *Gregorii Nysseni opera*, Leiden: Brill, 1960, 1.1, p. 1695-8 . Originally translated for the *Nicean and Post-Nicean Fathers Series II Vol. 5*, ed. Philip Schaff. Accessed at <http://ccel.org>.
- [22] VI. Lossky, *The mystical theology of the Eastern Church*, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 1994, p. 81.
- [23] Psalm 8,9, translation in english in *New International Versio*
- [24] Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium*, 1.1.1901-18, Originally translated for the *Nicean and Post-Nicean Fathers Series II Vol. 5*, ed. Philip Schaff. Accessed at <http://ccel.org>. Cf. A. Bottiglia, "Gregory of Nyssa's Infinite Progress: A challenge for an integrated theology", *Greek Fathers CHS 662 JZ*, [http://westernthm.files.wordpress.com/2010/05/nyssa\\_on\\_infinity.pdf](http://westernthm.files.wordpress.com/2010/05/nyssa_on_infinity.pdf) (2010), 4.
- [25] Gregory of Nyssa, *Apologeticus on Hexaemeron*, PG 44, 72C, translated by [www.documentacatholicaomnia.eu/.../0330-0395](http://www.documentacatholicaomnia.eu/.../0330-0395)
- [26] Gregory of Nyssa, *Apologeticus on Hexaemeron*, PG 44, 72C, translated by [www.documentacatholicaomnia.eu/.../0330-0395](http://www.documentacatholicaomnia.eu/.../0330-0395)
- [27] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, I, 9, SC 1, ch. 2, p. 231-3, 8-9 , (=PG 44, 301A), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.
- [28] Gregory of Nyssa, *In Canticum Canticorum*, 6, p. 202, transl. By Casimir McCambley, Brookline: Hellenic College Press 1987.
- [29] M. Laird, *Gregory of Nyssa and the Grasp of Faith: Union, Knowledge, and Divine Presence*, Oxford: Oxford University Press, 2007, p. 111. Cf. D. Ang, *The model of paradox in Christian theology: perspectives from the work of Henri de Lubac*, Sudney, 2011, p. 10.
- [30] Gregory of Nyssa, *In Canticum Canticorum*, 6, p. 181. transl. By Casimir McCambley, Brookline: Hellenic College Press 1987.
- [31] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC 1, ch.1, p. 95, (=PG 44, 327B), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978: "This is the true Knowledge of what is sought: this is the seeing that consists in not seeing, because that which is sought transcends all knowledge, being separated on all sides by incomprehensibility as by kind of darkness". Daniélou insists that Gregory gives new meaning to the term "darkness": "In Gregory of Nyssa, and especially in his later works, as the *Life of Moses*, and the *Commentary on Canticum of Canticles*, the term "darkness" takes on a new meaning and an essentially mystical connotation. It expresses the fact that the divine essence remains inaccessible even to the mind that has been enlightened by grace, and that the awareness of this inaccessibility constitutes the highest form of contemplation. Gregory's originality consists in the fact that he was the first to express this characteristic of the highest stages of mystical experience", Cf. J. Daniélou, "Introduction" in Herbert Musurillo, *From Glory to Glory: Texts from Gregory of Nyssa's Mystical Writings*, repr. Crestwood, New York: St. Vladimir's Seminary Press, 2001, p. 27.
- [32] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC1, ch.1, p. 46, (=PG 44, 314B), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.
- [33] Ar. Papanikolaou, *Being With God: Trinity, Apophaticism, and Divine-Human Communion*, Indiana: Notre Dame, 2006, p. 18
- [34] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC 1, ch. 2, p. 157, (=PG 44, 357C) transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.
- [35] Gregory of Nyssa, *Contra Eunomium*, II, trans. in English by Stuart George Hall.; Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC1, ch. 2, p. 176-78, (=PG 44, 370C), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978
- [36] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC1, ch. 2, p. 157 (=PG 44, 357C), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.. Cf. 1 Cor. 2:9. Cf. Is. 64:4
- [37] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC1, ch. 2, p. 157 (=PG 44, 357C), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.

- 
- [38] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC 1, ch. 2, p. 163, (=PG 44, 363C), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.
- [39] Gregory of Nyssa, *De vita Mosis*, SC 1, ch. 2, p. 164, (=PG 44, 365A), transl. in English. by A. Malherbe and E. Ferguseon, New York, 1978.
- [40] Gregory of Nyssa, "The sixth oration of Gregory Nyssa into the beatitudes", *Koinonia*, 45 (2002) 167-174.
- [41] Gregory of Nyssa, *In the Image and Likeness of God*, New York: St. Vladimir's, Crestwood, 1985, p. 31.
- [42] E. Artemi, "The sixth oration of Gregory Nyssa into the beatitudes", *Koinonia*, 45 (2002) 173- 174.